قضايا ومناقشات

في ذكرى الأربعين على رحيل شيخ النقاد: قراءة في رسائل محمد مندور إلى طه حسين

في ذكرى الأربعين
على رحيل شيخ النقاد
قراءة في رسائل
محمد مندور إلى طه حسين

أ. نبيل فرج
كاتب وناقد

تحمل الرسائل التى كتبها محمد مندور (١٩٠٧ - ١٩٦٥) إلى طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) الكثير من الأفكار الأدبية والإنسانية التى نطالعها فى كتابته النقدية، وفى مقدمات الكتب التى ترجمها ، وأهمها كتاب جورج ديهاميل "دفاع عن الأدب" .

كما تكشف هذه الرسائل المخطوطة المودعة فى دار الكتب والوثائق القومية ، جوانب مهمة لا يعرفها أحد من حياة مندور وأخلاقه ، قبل وأثناء البعثة الفرنسية التى دامت تسع سنين ، من ١٩٣٠ - ١٩٣٩ ، وبعدها ..

ولعل أول ما يسترعى النظر فى هذه الرسائل إيمان مندور الراسخ بالعلم والمعرفة ، وفهمه الدقيق للإبداع وللعلاقة الوطيدة بين القديم والجديد ، وإداركه المبكر لوحدة الثقافة الإنسانية ، فى غير تعارض مع الخصوصيات القومية ، أو تناقض بين المحلية والعالمية؛ لأن الأصالة هى القوة الحقيقية للثقافة الوطنية الديمقراطية التى ارتبط اسم محمد مندور بها .

وهذه بعض المبادئ النقدية التى تناثرت فى هذه الرسائل ، وتمثل خلفية كتاباته النقدية فى مراحلها المختلفة ، من النقد الجمالي أو الفنى إلى النقد الموضوعى فالنقد الإيديولوجي ، ويلخصها مندور فى أن الإبداع صياغة فنية لتجربة بشرية ، ويعنى بها أن الإبداع صورة أدبية معبرة عن مضمون إنساني ، أو عن دلالة اجتماعية ، تجلت فى نقده ، وفى تذوقه للنصوص على الأسس النظرية العامة ، وفى منهجه فى النقد الإيديولوجي .

يرى مندور فى أولى هذه الرسائل أن الأدب مقوم أساسى من مقومات الحياة الخاصة والعامة ، وأن تجديد هذا الأدب وتحديثه تجديد وتحديث لهذه الحياة .

ومثل هذا التجديد والتحديث يتوقف على ارتباط تحرير المواطن اجتماعياً بتحرير الوطن سياسياً . والتحرير السياسي للأوطان رهن بتحريرها الاقتصادي .

وفى رسالة كتبت فى ١٩٣٥ يذكر مندور أن معرفة الجزء لا تجدي إلا بمعرفة الكل . فلا سبيل إلى فهم نصوص المسرح اليوناني القديم ، وهى هنا بمثابة الجزء ، إلا بمعرفة الحضارة اليونانية القديمة ، فى أدبها وفنونها ، وتاريخها ، وفلسفتها ، وخطبها ، واجتماعها ..

وهذا هو الباب الضيق أو الطريق الصعب الذى يحيط بالأبعاد كلها فى أوسع مجالاتها ؛ لأن ما عداه لا يعدو أن يكون سكونًا ، دون غض من قيمة التفاصيل التى تخصب العقل والنفس.

وعلى هذا النحو لا يمكن فهم فقه اللغة بغير فهم الأنساق الفكرية التى تحكمها فى ضوء المنهج التاريخى ، وهى عنده أهم فى فهم النصوص من تراكيب هذه اللغة ومنحاها فى النظم وتصاريفها وروابطها التى تحمل مضمون العمل الأدبى .

وتخضع كل لغة لعاملين أساسيين ؛ العامل الأول : عامل الثبات . والعامل الثانى : عامل التطور .

وبفضل العامل الثانى يجرى النحت ، والاشتقاق ، والتحول ، والموت ، والنقل ، والتوسع ، وإلا فقدت هذه اللغة القدرة على البقاء والحياة .

وللبساطة فى الفكر والتعبير من الشاعرية والتأثير ما يفوق ما فى الفكر العميق والتعبير المعقد .

وتشمل الأبعاد والمصادر المعرفية فى مفهوم مندور الرحلات والأسفار البعيدة حين تكون من أجل غاية علمية ، يشاهد فيها ، الباحث مواطن الأحداث الماضية على الطبيعة ، فى البلاد التى جرت فيها ، مثل رحلة مندور إلى إيطاليا واليونان التى يتحدث عنها فى رسائله ، مخالفاً بذلك لوائح البعثة ؛ لكى يطلع على الأماكن التى دارت فيها أحداث التاريخ وملاحم هوميروس وتراث المسرح اليوناني ، ويقرأ وقائعها ومعاركها على الأحجار التى تبقت على أرضها ؛ لتكون زاده الخاص فى دراساته الأدبية والمقارنة ؛ التى لا يستغني عنها باحث فى الآداب القديمة .

ويصف مندور فى حديثه الشهير مع فؤاد دواره الذى نشر فى كتابه "عشرة أدباء يتحدثون" (كتاب الهلال ، يوليه ١٩٦٥) آثار هذه الرحلة قائلاً : إن الفائدة التى حصلها منها كانت أفضل من قراءة ألف كتاب.

ويبدو أن محمد مندور كان يرد بهذه العبارة، بلسان عف ، على من كادوا له فى البعثة، وأنزلوا به العقاب؛ لأنه خرج على اللوائح، قائلين بتهكم أن زيارة الأحجار اللاتينية لا فائدة منها فى معرفة حضارتها البائدة.

أما مندور فكان على يقين بأنه بمقدور هذه الأحجار البائسة التى سافر لمشاهدتها بفضول لا يشبع أن تبوح وتحكى بأكثر مما تبوح وتحكى النصوص المكتوبة ، وأن الخرائب والأطلال الدارسة تعيد السطور

الزائلة من كتب التاريخ ، وتزيد هذا التاريخ وضوحاً وفهماً .

ولكنه فى نفس الوقت كان يجد فى المراجع والقواميس ومطولات الكتب والوثائق ما لا غنى عنه للدارسين الذين يسعون للثقافة الموسوعية لزيادة معلوماتهم ، والإحاطة بكل ما يتصل بها .

ورغم ما حصله مندور من ثقافة عميقة ، فليس فى الرسائل أى نوع من التعالي أو التشدق بالثقافة .

ومن جهة أخرى يري مندور فى قوة التفكير أو غلبة العقلانية ما يضعف الإرادة وينتقص منها . ويري فى مقاومة الطبيعة والفطرة والتلقائية ضرراً أكثر مما فيه من نفع .

ويفرق مندور فى أكثر من موضوع من هذه الرسائل بين العلم والفن . العلم يكشف الحقائق والقوانين والعلل ، بينما جوهر الفن الخلق والتوليد والإضافة .

وهناك فرق كبير بين العلم ومظاهر أو تطبيقات هذا العلم ، فى سياقه التاريخى والاجتماعى .

ويمثل هذا الفرق بين الأدب والتأملات الفلسفية، وإن جمع بين العلم والأدب نزعة التجديد التى لا تقف عند حد ، والعقلانية التى ترفض كل غيبية أو ذيلية .

وإلى جانب ما تعكس الرسائل من صفات نفسية لمندور ، أبرزها تمسكه بالحق والعدل والقيم السليمة التى جعلت منه ناقدا نزيهاً لا يشك أحد فى صدق رؤياه ، فإن الرسائل تعبر بوضوح عن محبة التلميذ الغامرة للأستاذ ، وثقته البالغة فيه ، وتوقيره الشديد له كأحد قيادات الصفوة المثقفة التى لا يناظرها أحد ، وقبل هذا كله وبعده اعترافه بجميل طه حسين عليه .

ومن الواضح أن هذا الذى أسداه طه حسين إلى محمد مندور ، منذ التحاقه بالجامعة وسفره فى البعثة، ظل يطوق عنق مندور سنوات طويلة ، لا يستطيع أن يفصح عنه ، إلى أن أصدر كتابه "فى الميزان الجديد"، وأهداه إلى طه حسين .

وعلى كثرة ما يذكر مندور عن نفسه وعن اطلاعاته فلم يذكر قط ، سوى فى هذه الرسائل ، أنه وضع مسرحية كاملة أثناء الدراسة فى البعثة ، وأنه أرسل مخطوطها إلى طه حسين .

ومثل هذه المسرحية التى كتبها مندور لو وجدت ولم تفقد مع غيرها من مخطوطاته ، فإنها يمكن أن تلقى الضوء على مندور الناقد الذى شغل فن المسرح نسبة عالية من نقده . هذا النقد الذى يهتم بالأصول الكلاسيكية التى وضعها أرسطو ، فيما يعرف بالوحدات الثلاث ، اهتمامه بالأعمال المسرحية المتطورة فى مختلف العصور .

ولا شك أن هذه المسرحية يمكن أن تطلعنا على السمات أو الأصول المثالية فى نقد مندور ، وعلى أواصره بالتاريخ والمجتمع وحضارة العصر .

وعن حضارة الشرق والغرب يذكر مندور أن بلوانا القومية ترجع إلى تأخرنا المادى ، أى إلى غياب العلم الذى يقوم على أسس أدبية ، ويقصد به الخيال ؛ لأنه لا نهضة مادية حقيقية بلا آداب إنسانية متراكمة ، تنتفى فيها النعرات القومية .

ووسائل الإدارك فى هذه الآداب لا تختلف عن وسائلها فى العلم . كلاهما يشارك فى تكوين الفرد وتقدم المجتمع ، سواء بتربية المنحى الرياضى فى العلم ، أو بتنمية البصيرة النافذة فى الآداب .

بل إن المنحى الرياضى لا يتحقق ما لم تكن هناك بصيرة نافذة .

ويدلل مندور على صحة رؤيته بأسماء عدد من الرياضيين الفلاسفة ، مثل ديكارت وسبينوزا ، كان اتجاههم الأدبى وخطرات روحهم أساس تجاربهم العلمية أو الرياضية .

وبالطبع لا يستطيع المطلع على هذه الرسائل أن يتجاهل الأخطاء النحوية والإملائية الكثيرة التى ترد فيها بصورة واضحة ، كما ترد فى معظم الكتب التى ترجمها مندور ، بما فيها كتاب جورج ديهاميل " دفاع عن الأدب " .

ولا تفسير لهذه الأخطاء إلا أن مندور كان أثناء هذه البعثة التى كتبت فيها هذه الرسائل وترجم فى أثرها عدداً من الكتب ، بعيداً عن لغته وآدابها ، غارقاً فى الآداب الأجنبية و تراثها ، وهو ما تداركه بعد ذلك بقليل ، حين أعد رسالته للدكتوراه عن النقد المنهجى عند العرب فى ١٩٤٤ ، وغاص فى التراث العربى ، وأخذ يتبوأ موقعه الرفيع فى حياتنا الثقافية والأدبية التى عدا بها مندور شيخ النقاد .